مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 11 /العدد: 04 (2023)، ص: 114- 132

"نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" للشيخ الحسين الورثيلاني بين السّرد العجائبي وخطى التاريخ والذّاكرة

"An excursion into the virtues of history and news" by Sheikh Al-Hussein Al-Warthilani between miraculous narration and the steps of history and memory

نبيل حويلي[1]

[1] جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، nabil.haouili@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/12/17 تاريخ القبول: 11 /2024/01 تاريخ النشر: 2024/01/12

ملخص:

لقد عرف الأدب الجزائري مرحلة بارزة بفضل جهود الكثير من الأدباء والمفكّرين وعلى رأس هؤلاء الشيخ الحسين بن محمّد الورثيلاني الذي اهتمّ بجنس الرّحلة، وألّف رحلته الموسومة "بنُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" المشهورة بالرّحلة الورثيلانية، والتي وتقع في موسوعة ضخمة تعادل 816 صفحة، وتضمّ الرّحلة الورثيلانية بين دفّتيها وصف رحلة قادت صاحبها إلى الدّيار المقدّسة وما شاهده من الأمكنة والآثار ومن التقى بهم من العلماء الأجلاء والفقهاء الأكفاء والأدباء النجباء والشعراء الأرقاء رفقة الأصدقاء الأوفياء، وسنسعى في مداخلتنا هذه الوقوف عند تفاصيل هذه الرّحلة من سرد يتراوح بين الفضاء العجائبي وخطى التاريخ والذّاكرة من خلال رحلة يتصّدرها قطب البيت الحرام إضافة إلى الأخبار المتفرّقة والمتنوّعة التي تضمّها.

كلمات مفتاحية: الرّحلة، رحلة الورثيلاني، التاريخ، الذاكرة، البقاع المقدّسة.

Abstract:

literature has witnessed a prominent stage thanks to the efforts of many writers and thinkers, and at the forefront of these is Sheikh Al-Hussein bin Muhammad Al-Warthilani, who was

interested in the genre of travel, and wrote his journey called "An Excursion of Insights into the Excellence of the Science of History and News," famous for the Al-Warthilani Journey, which is contained in a huge encyclopedia equivalent to 816 pages. It contains, between its pages, a description of a journey that led its owner to the Holy Land, the places and monuments he saw, and the people he met, including eminent scholars, competent jurists, noble writers, and noble poets, accompanied by loyal friends. In this intervention, we will seek to examine the details of this journey from a narrative that ranges between the miraculous space and the steps of history. The memory is through a journey led by the pole of the Sacred House, in addition to the scattered and diverse news it contains.
Keywords: journey, Al-Warthilani journey, history, memory, holy places.

المؤلف المرسل: نبيل حويلي

1. مقدمة:

تحتلّ الرّحلة مكانة مميّزة في التّراث الفكري الأدبي الجزائري، وكُرّست لها مجهودات كبيرة في سبيل معرفة أصولها والكشف عن أسرارها ودوافع نشأتها والقيام بها، بالإضافة إلى الكمّ الهائل الذي تستحوذ عليه من فائدة عظمى لكل باحث وفي كلّ اختصاص كما أنّها تشكّل متعة للقرّاء والباحثين. ولعلّ من بين هؤلاء الباحثين والمفكّرين الذي اهتمّوا بهذا النّوع الأدبي نجد الشيخ "الحسين بن محمّد الورثيلاني" الذي نصب أعماله في سبيل الرقيّ الفكري والأدبي والثقافي بالجزائر.

فرحلته فنّ من الفنون النّثرية الجزائرية، عرفت شيوعا واسعا ونالت استحسانا كبيرا، يصف فيها ما رآه وهو في طريقه لأداء فريضة الحج بالبقاع

المقدّسة مصداقا لدعوة الله الصّريحة بحج بيته لمن استطاع إليه سبيلا، والسعي في الأرض والسّير فيها وركوب الخيل والفرس وخوض البحار والانتفاع بها والانتشار في الأرض وصعود الجبال وبلوغ قممها، فكانت تلك الدعوة تشجيعا له على تحمّل مشق السّفر قصد الانتفاع به اقتصاديا وفكريا وثقافيا، ونشر معالم الإسلام السمحاء في أصقاع وبقاع المعمورة.

ولكلّ بلد من البلدان خصائصه ومميزاته التي تجعله يختلف عن سائر الأوطان سواء تعلّق الأمر بما هو هبة من الله عزّ وجلّ فيما يخصّ الموقع الجغرافي والمناخ الطبيعي والتضاريس والبيئة أو ما يتعلّق بما صنعه الإنسان من حضارة وعمران وآثار وبنايات شيّدها على مرور الأطوار وفي كلّ الأقطار، وها هو "الشيخ الحسين الورثيلاني" يكتب رحلته الشهيرة "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" يرصد فيها قامة من العلماء الأجلاء والفقهاء الأكفاء والأدباء الأرقاء رفقة الأصدقاء الأوفياء، ويضمّ فيها عادات وتقاليد وأخبار الشعوب وأنباء عن حضارات خلت ومجتمعات مشرقية والأخرى مغاربية، واحتلت هذه الرّحلة منزلة رفيعة في الأدب الحديث الجزائري الذي دوّن قبيل ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي نهل أعضاؤها الكثير من مبادئ الآداب والأخلاق ولاسيما حفيده "الفضيل الورثيلاني" أحد الأعضاء المؤسّسين لهذه الجمعية الفكرية الجزائرية الراقية ودورها الريادي في مجابهة قوى الاستعمار الغاشمة. وسنسعى في مداخلتنا هذه الوقوف عند تفاصيل هذه الرّحلة من سرد يتراوح بين الفضاء العجائبي وخطى التاريخ والذّاكرة من خلال رحلة يتصّدرها قطب البيت الحرام إضافة إلى الأخبار المتفرّقة والمتنوّعة التي تضمّها.

2.أدب الرحلة وشخصية الورثيلاني:

لقد برز جنس الرّحلة كفنّ أدبيّ ابتداءً من القرن الثالث للهجرة بفضل جهود كلّ من "العباس أحمد بن يعقوب" صاحب كتاب "البلدان" الذي عبّر فيه

عن شغفه بالرّحلة وكذا التطلّع لمعرفة الأوطان و"المسعودي" في كتابه "مروج الذهب" إذ يقدّم فيه ملخّصا عن رحلاته خاصة تلك التي تتعلّق بالحجّ إلى مكّة المكرّمة إذ تعدّ أوّل الرّحلات التي عرفتها الأمّة الإسلامية، وبعدها نجد الرّحلات التّجارية التي قامت بها الأمم السالفة كمصر واليونان والفرس والعرب وغيرها ... وتحتلّ الرّحلة في الأدب الحديث منزلة رفيعة تبوأتها بفعل العوامل حتى أصبحت فنّا من الفنون الشائعة بين الأدباء والمفكّرين عبر أنحاء العالم، فهي تنبعث من الوصف الطريف للواقع والسّرد الفنّي للمغامرة الإنسانية والعواطف المحرّكة للبشر واكتشاف ذواتهم وبالتالي اختراق الحواجز بين الأمم في السبيل الالتقاء والتعارف. (قينة، 1995، صفحة 98)

1.2 تعريف الرحلة لغة واصطلاحا :

فأمّا الرحلة لغة: فقد حظيت مادة (ر،ح،ل) بشرح وافر في العديد من المعاجم العربية، ومنها ما وُرد في "لسان العرب" "لابن منظور": "الترحيل والرحال بمعنى الأشخاص ويُقال: رجل الرّجل إذا سار وأرحلته أنا. ورجل رحول وقوم رحل: أي يرتحلون كثيرا، ورجل رحال عالم بذلك مجيد له. والرّحلة بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر والترحل والارتحال: الانتقال وهو الرحلة والرّحلة اسم للارتحال المسير ..." (منظور، 1990، صفحة 279) فجاءت معاني الرحلة –إذن- في السير والانتقال والوجهة والمقصد الذي يراد السفر إليه. ومشتقات مادة "رحل" كثيرة ومتعدّدة وتدلّ كلّها على الحركة لأنّ الرحلة ما هي إلا حركة انتقال تبعث في الإنسان الحيوية والنشاط، وتعود عليه بمنافع عدّة في مختلف مجالات حياته، على عكس السكون الذي يبعث في صاحبه الجمود والخمول. (الرزّاق، 1995، صفحة 23) وهناك ثبات من ناحية المعنى، هو أنّ المدلول اللّغوي لكلمة "رحلة" لا يخرج في غالب الأحيان عن مفهومي الانتقال والسّفر.

أمّا اصطلاحا تعدّدت المفاهيم والمصطلحات التي تفيد معنى الرّحلة كما تتشابك مع مصطلحات قريبة منها في المعنى والمبنى. والبداية هي من تعريف موجز لأدب الرّحلات: "فهي مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطّبيعيّة التي تُصادفه ويسجّل ويسرد مراحل رحلته بأدقّ التفاصيل" (وهبة، 2008، صفحة 577). وأمّا الرّحلة فهي تجربة تعلن عن سرد الأسفار وتتضمّن معنى الذهاب بعيدا عن موطن الأصل، كما تفتح أفق انتظار يرتبط بالنّوع نفسه، أي أنّ القارئ ذاته ينتظر وصفا للبلدان التي زارها صاحبها وينتظر كذلك الإشارة إلى خصائص تلك البقاع التي زارها. والرّحلة أيضا "نقلة في الزمان إذا كانت بالفكر أو الخيال، ولكن الرّحلة الحقيقية رحلة في المكان، وسرعان ما تصبح بالضّرورة رحلة في المكان والزمان معًا، لأنّ المكان الإنساني يحمل معه زمانا خاصا، فلكلّ مكان زمان، وتتأكّد هذه المقولة إذا تنبهنا إلى أنّ المقصود بالمكان في معظم أنواع الرّحلات هو مكان المجتمع الآخر أو الثقافة الأخرى، والمجتمع والثقافة كيانان ملتحمان. وها هو "عمر بن قينة" يعرّف الرّحلة قائلا: "إنّها لون أدبيّ ذو طابع قصصيّ، فيه عموما فائدة عظمى للمؤرّخ مثل الباحث في الأدب والجغرافيا وعالم الاجتماع، كما هو ضرب من السّيرة الذّاتية في مواجهة ظروف وأوضاع وفي اكتشاف معالم وأقطار ووصفها والحكم عليها وعلى المجتمع". (قينة، 1995، صفحة 97) والملاحظ في هذا التعريف ظهور ما يتعلّق بوجه آخر من أدب الرّحلة وهو التعريف بسيرة صاحبها وبسيرة غيره من العلماء الأفذاذ والأجلاء.

أمّا السّرد الرّحلي فهو بمثابة مذكّرات ينجزها صاحبها على إثر تنقّله من مكان إلى آخر أو من حيّز إلى آخر قصد الاستكشاف، وتدوم الرّحلة طويلا وعادة ما تكون غير محدّدة الزّمن، وفيها يجمع صاحبها أحداثا وصورا وتعليقات وسلوكات

غيره وطبائعهم وملامح عيشهم، كما يصف العمران والمباني والآثار وأجزاءً أخرى من حضارة ذلك المكان الذي هو بصدد زيارته.(Pierre, 1984, p. 1039)

أمّا عن مصطلح الحيّز (location) فإنّه يجمع بين المكان والفضاء فقد يكون اتجاها ومجالا وفضاءً وجوّا وفراغا وامتلاءً، فهو يتشكّل حتى من أدقّ التفاصيل الهندسية من أشكال وخطوط ورسوم تحمل في طيّاتها دلالات الحيّز، ويُطلق الحيّز أيضا على فضاء جغرافي أو أسطوري أو كلّ ما يند عن المكان المحسوس كالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال والأشياء المجسّمة مثل الأحجار والأشجار والأنهار وما يعلو هذه المظاهر الحيزية من حركة أو تغيير. (المالك، 2004، صفحة 117) فالحيّز –إذن- هو كلّ ما يشغل مساحة معيّنة وما يطرأ عنها من حركة وتغيير.

2.2 مصطلح الرّحلة في القرآن الكريم:

تعدّدت الآيات التي حوت مفردات الرّحلة وما يقاربها معجميا، فالقرآن شجّع النّاس على القيام بها طلبا للعلم والمعرفة وطلبا للرّزق والمال والسعي وراء تجارة حلال تنفع، ومن النصوص القرآنية الصريحة التي دعت إلى الرّحلة قوله تعالى: "لإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشّتَاءِ والصَّيْفِ، فَلِيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ، الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ"، سورة قريش. فقبيلة قريش المشهورة في شبه الجزيرة العربية وعاصمتها الثقافية والدّينية والتجارية كان أهلها يقومون برحلتين خلال السّنة الأولى منهما في فصل الشتاء إلى بلاد الشام والأخرى في الصّيف إلى اليمن. وفي موضع آخر وردت الآية الآتية: "فَلَمّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ جَعَلَ السّقَايَةَ في رَحْلِ أخِيهِ ثمَّ أذّنَ مُؤَذّنٌ أيّتُهَا العِيرُ إنّكُمْ لَسَارِقُونَ"، الآية 70 من سورة يوسف، وجاء معنى كلمة "رحل" بمعنى البعير وهو مرادف لمعنى الرحالة. وحثّ عزّ وجلّ عباده التنقّل في البحار بغية الانتفاع بها إمّا بحثا عن الرّزق أو المال أو قصد اكتساب خبرة واسعة في هذه الحياة، وكذا بغية اكتشاف معالم الخلق

عند الله والتمعّن فيها وشكره على ما أسدى من جزيل الرغائب وكميل المراتب في قوله تعالى: "إنَّ في خَلْقِ السّمَاوَاتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيْلَ والنَّهَارَ والفُلْكِ التي تَجْرِي في البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فأحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعدَ مَوْتِهَا وبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَةٍ وتَصْرِيفِ الرّيَاحِ والسّحَابِ المُسَخَّرِ بين السّمَاءِ والأرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"، الآية 164 من سورة البقرة، وأخيرا قوله تعالى: "وحَمَلْنَاهُمْ في البّرّ والبَحْرِ ورَزَقْنَاهُمْ مِنْ طَيّبَاتِ وفضّلْنَاهُمْ على كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضيلا"، الآية 70 من سورة الإسراء، تدعو هذه الآية إلى ضرورة فكّ مجاهل البرّ والبحار واكتشاف ظلمات الأصقاع والبقاع البعيدة.

3.2 الورثيلاني: (حياته ومؤلّفاته)

هو الحسين بن محمّد السعيد بن الحسين بن محمّد بن عبد القادر بن يحيى بن أحمد الشريف بن علي البكاي البجائي الحسني من شرفاء تافيلات بضواحي أيت وارثيلان وهي قبيلة تقع ببلاد الزواوة بين بجاية وسطيف. من مواليد عام 1125هـ/1713م من أسرة فقيرة محافظة على العادات والتقاليد وتحت لواء الصّوفية، تعلّم عند والده وجدّه وبجامع القرية الأدب والفقه والشريعة وعلم التاريخ، وأخذ الكثير عن علماء المنطقة المعروفة بالعلوم والدّين. توفّي عام 1193هـ/1779م بمسقط رأسه بعدما جال سائر البلدان وبعدما أدّى فريضة الحج، رحمه الله. ولقد لمع اسم فضيلة "الشيخ الحسين الورثيلاني" في سماء الفكر الجزائري وأدبه وألّف مجموعة معتبرة من المؤلّفات التي ذاع صيتها في الدّراسات الأدبية الجزائرية الحديثة، لعلّ أبرزها رحلته الحجازية التي قادته إلى البقاع المقدّسة تحت عنوان: "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وكتابات شعرية ضاع الكثير منها، وأعمال أخرى "كشرح المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمان الأخضري في التصوّف"، وكتاب "شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار"، وشروحات كثيرة منها: "شرح محصل المقاعد"، و"شرح كتاب الصّلاة"،

و"شرح خطبة الصغرى للسنوسي"، و"شرح بردة البوصيري" بالإضافة إلى أعمال عظيمة لا تزال خالدة في مكاتب الأدب الجزائري الحديث.

3.رحلة "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" بين السّرد التاريخي والسّرد العجائبي:

1.3 رحلة "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" على خطى التّاريخ:

لقد كان المفكّر والأديب في البلاد المغاربية عامة والجزائر بخاصة يحسّ بأنّ الفضاء الذي يعيش فيه غير كافٍ لإرضاء متطلّباته ورغباته العلمية، فكان يسعى دوما الانتقال إلى العالم الآخر ونعني هنا المشرق بما يحمله من دلالات وشحنات ثقافية مثقّلة، إذ كان مصدر إلهامه لاسيما مصر كبؤرة رئيسية في النهضة الفكرية والعلمية في الوطن العربي، وأيضا بلاد الشام وبلاد الحجاز التي تفتح أفق وباب دخول قطب بيت الله الحرام وضواحي مكّة المكرّمة. فأصبح هاجس زيارة هذا المكان يسكن كلّ مفكري وعلماء بلاد المغرب سعيا منهم لاستكمال أفاقهم العلمية والاطّلاع على سائر منافذ العلوم التي يتوفّر عليها المشرق ومن ثمة مقابلة علماء أفذاذ تفنّنوا في علوم الدّين واللّغة وفي تفسير آيات الكتاب المبين والأحاديث النبوية الشريفة وفلسفة العلوم والبلاغة وغيرها من العلوم ... هذا ولقد شاعت الرّحلات الحجازية وتأصّلت ببلاد المغرب الأوسط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة/السابع عشر والثامن عشر للميلاد، وأصبحت تمتاز بخصائص تجعلها تختلف عن سائر الرّحلات الأخرى وهذا من حيث تدوينها بأسلوب مميّز يتمثّل في ضرورة تشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كلّ مدينة، مع إعطاء كلّ لمحة وافية عن كلّ مراحل السّفر حتّى عُدّت من بين أصدق المصادر التاريخية. (بكاري، 2017، صفحة 43)

وتُعتبر رحلة الورثيلاني "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" من أشهر الرّحلات الجزائرية نحو الحجاز والأراضي المقدّسة، وقد تمّت هذه الرّحلة

عام 1179هـ/1766م وخرجت إلى الطّبع والتأليف سنة 1903 مع تعليقات وجهود المفكر "بن مهنا القسنطيني" بتونس. ويُعتبر الجزائري الآخر "محمّد بن أبي شنب" أوّل من قام بتحقيقها ونشرها لأوّل مرّة، ليعاد نشرها من قبل دار الكتاب العربي ببيروت للمرّة الثانية سنة 1974، وتضمّ الرّحلة رصيدا معتبرا من الوصف كوصف المدن والبلاد والقرى والمناطق وأهلها وعلمائها وعاداتها وتقاليدها وحكاياتها وأساطيرها ... ووصف آخر للطّبيعة وطريق الحج المغمورة بالأحداث الشيّقة والممتعة والعجيبة والغريبة في الآن نفسه.

وجاء العنوان ملفتا للنّظر من الوهلة الأولى وجعله الكاتب جذّابا يوحي بمضمون الرّحلة، فهي نزهة تُقلّنا إلى بلاد أخرى بغية الاستمتاع والنظر إلى طبيعتها الخلابة وإلى اكتشاف أخبار وتاريخ المناطق والبقاع التي مرّ عليها، ويعرّف بتاريخها الحافل بالأحداث وكذا بعلمائها الأفذاذ الذين ذاقوا طعم العلم والعلوم المتنوّعة، وتنقسم الرّحلة إلى ثلاث مراحل قام بها "الشيخ الحسين الورثيلاني" على امتداد ثلاثة عشر سنة بين رحلة وأخرى، وهو الأمر الذي مكّنه من ترتيب أموره وتنسيق رحلاته وتسلسل الأحداث وحلقاتها. (بكاري، 2017، الصفحات 46-47) ودوّن موسوعته الرّحلية هذه علما منه أنّ الاهتمام بالتاريخ في الجزائر يكاد ينعدم خاصة في فترة كانت المماليك العثمانية تحكم وتسير أحوال البلاد، فأراد ملء هذا الفراغ الذي لحق بالمكتبة الجزائرية حتى كتب يقول: "فإنّ علم التاريخ منعدم فيهم، وساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء أو انشغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها" (الورثيلاني، 1908، صفحة 713). ونخلص من هذا القول أنّ الشخصية المفكرة بالجزائر كادت أن تقصي التاريخ من دائرة المعارف لولا أنّه ثمة من حرّكها بغية الحفاظ عليه والاستشهاد به.

وصف الأماكن:

يرتبط المكان بمعنى الموضع والموقع، وهو عنصر مهمّ في النّص الأدبي مهما اختلفت طريقة عرضه من كاتب لآخر وهو السّياق الجغرافي والمعماري أيضا. ولقد اهتمّ "الورثيلاني" في رحلته هذه بالمكان إذ يشكّل البؤرة الأساس فيها، وبالوصف الجغرافي والسّرد التاريخي، وبرع في عملية وصف الأقطار التي مرّ بها وذكر الأوصاف الطّبيعية والبشرية لسكانها، وحرص على دقّة الملاحظة وإصابة الصّميم عند كلّ منطقة زارها أو توقّف عندها، غير أنّ مدّة الإقامة في هذه الأماكن تختلف باختلاف درجة حضارتها وازدهارها وتقدّمها ورقيّها فيما بينها، ولا يُخفى على أحد أنّ مصر البلد العريق والحضارة العريقة استهوت "الشيخ الورثيلاني" وبات فيها مدّة معتبرة من الزمن وقصّ عنها الكثير وسرد عن حضارتها العديد من الصفحات، ودليل ذلك الأبواب الكثيرة التي خصّها بها، فتركت فيه انطباعا أكثر من عظيم، وقدّم وصفا دقيقا لشعبها وعاداته وتقاليده ووصف المدن والعمران وأزقّة الشوارع الضيّقة منها والواسعة والمحلات والأكلات الشعبية وذكر مساجدها ودور العلم والدّين والزوايا والأولياء الصّالحين، كما ذكر مدن كثيرة مثل الإسكندرية بمكتبتها العملاقة ومنارتها العظيمة التي ترتفع موازية أفق البحر الأبيض المتوسط. كما قدّم وصفا رائعا لأم المدن القاهرة بشوارعها وبنيانها وعمرانها وكذا بمساجدها يتقدّمها جامع الأزهر الشريف ففخامة الاسم تكفي لوصفه، وذكر مسجد الحسين عليه السّلام ومقامات الأولياء والوليات من أمثال مقام السيدة زينب والسيّدة نفيسة رضي الله عنهما وكتب يقول عن مصر أمّ الدّنيا بشوق وشغف وقلب متلهّف: "وبالجملة فمصر أمّ البلاد شرقا وغربا، لا تستغرب شيئا ممّا يُحكى عنها من خير أو شرّ، فهي تغني عن الغير ولا يُستغنى الغير عنها". (الورثيلاني، 1908، الصفحات 24-25) فالأزهر ومصر وما فيها من معالم

حضارية استوقفت الرّحالة الجزائري "الشيخ الحسين الورثيلاني" وأصابته بحمى العشق حتى أغرم بأم الدّنيا وكتب عنها ما كتب وصعب عليه فراقها.

ومن النّقاط البارزة التي أشار إليها الكاتب في رحلته الطّويلة قائمة طويلة تضمّ بين دفّتيها تراجم للأولياء الصّالحين والوليات الصّالحات والعلماء والفقهاء الأحياء منهم والأموات سواء كان ذلك بقطر وطنه الجزائر أو بكلّ البقاع التي خاضها وسار إليها ساعيا، وذكر الأحداث والأحوال والأخبار على مدى فترات، إذ إنّه لم يقتصر على فترة معيّنة ولا بمذهب محدّد. (بكاري، 2017، صفحة 48) ويكتب عن جوار منطقته ما يلي: "من الوجيز أن نذكر أنّ صلحاء بلدنا لم يتعرّض لهم أحد من قبلُ ولا بعدُ، لعدم الاعتناء وضيق المعيشة، أردت التنبيه عليهم على سبيل الإيجاز والاختصار مع البيان والاستفسار، نعم أذكر ما دون "وادي أقبو" وأمّا جبل زواوة فهو منفرد، وأولياؤه شُهرتهم تُغني عن ذكرهم، وتعظيمهم يقوم مقام بيانهم وتبيانهم وجميل آثارهم". (الورثيلاني، 1908، صفحة 77) والمتمعن في هذا الاستشهاد يدرك على الفور مدى ارتباط أهالي منطقة القبائل بالأولياء الصّالحين والزّوايا حتى سميت المنطقة بمنطقة الزواوة نسبة إلى تعدّد الزوايا ودور العلم فيها، فكانت تنبع بالعلوم والمعارف الدّينية وكانت قبلة لطلبة وحفظة القرآن من كلّ أنحاء الجزائر حتّى ظلّت وإلى يومنا هذا تحتلّ الصّدارة على المستوى الوطني، ولعلّ من أهمّ تلك المواقع الدّينية والحلقات المعرفية الموزّعة في بقاع وأصقاع منطقة القبائل نجد زاوية سيدي عبد الرحمان الإيلولي، وسيدي ودريس بمنطقة إيلولة وزاوية سيدي عبد الرحمان الجرجري، وزاوية شلاطة وزاوية سيدي سحنون بقرية جمعة السحاريج وزاوية شرفاء بهلول بن عاصم بعزازقة وسيدي العدلي بضواحي أقبو والقائمة طويلة ... وهو الأمر الذي يدلّ على الارتباط الوثيق الذي يكنّه أهالي المنطقة للدّين الإسلامي. كما وصف "الشيخ الحسين الورثيلاني" أولياء مصر بعددهم الكبير ويكتب قائلا: "مصر قد حُشيت

بأولياء الله، وإنّهم فيها كالنّجوم في السّماء، فالمستور فيها أكثر من الظاهر، إذا الخامل منه أكثر من أن يُحصى". (الورثيلاني، 1908، صفحة 98) والواضح أنّ "الشيخ الورثيلاني" منبهر من عدد الأولياء الصالحين، كيف لا وهو الرّجل الصالح الذي يتّصف بالتقوى والورع والإخلاص في حب الله حتى أصبح معروفا بين أفراد مجتمعه بهذه الصفات، وقام النّاس من حوله بتداول أخبار عن كراماته وسردوها بأسلوب قصصي جميل جدا، واتفقوا فيما بينهم على نشرها وتمجيد صاحبها بهدف تخليد ذكراه بين نفوس أتباعه ومحبيه وذلك ببناء مقام أو ضريح له حتى لا يتساوى مع غيره من عامة النّاس ومن ثم ينتفع بصلاحه وتقواه أفراد قريته أو مجتمعه، وبالتالي يبجلونه ويعظّمونه بإقامة ولائم ومواقف يستذكرون فيها حياته ويسردون فيها كراماته ومبادئه وتقواه كنوع من أنواع الدعوة والإشهار والاستمرارية.

وتجدر الإشارة أيضا أنّ فضيلة "الشيخ الحسين الورثيلاني" قد التقى في طريقه قامة من العلماء الأجلاء والفقهاء الأكفاء والأدباء الفضلاء فنقل منهم العلوم ونهل منهم المعرفة والفكر واستفاد من دروسهم ومحاضراتهم ولقاءات جمعته بهم، يتقدّمهم: "الشيخ ابن صباغ"، و"الشيخ أحمد السكندري المالكي"، و"الشيخ الطحلاوي"، و"الشيخ علي العمروسي"، و"الشيخ محمّد التونسي البليدي"، و"الشيخ أحمد الجوهر الشافعي"، و"الشيخ أحمد النفراوي"، و"الشيخ الصعيدي المصري" رحمهم الله جميعا، وغيرهم من العلماء الذين صادفهم خلال رحلته الحجازية إلى البقاع المقدّسة. ونقل الرّحالة أخبارا كثيرة عن الشيوخ الذين أمدّوه بعلوم غزيرة فكتب عنهم يقول: "وقد سمعت من العارف بالله الصّدر الأعظم، والعالم الأفخم والورع الفهم، الجامع بين الشريعة والحقيقة سيدي محمّد المغربي الطرابلسي عام أربعة وخمسين ومائة ألف" (الورثيلاني، 1908، صفحة 288) والواضح من هذا الاستشهاد أنّ "الورثيلاني" يستعين أحيانا كثيرة

بمن ينقل الأخبار بين أوساط النّاس ويحاول استجلاءها وكتابتها عنهم نقلا. كما اعتمد الرّحالة أيضا عن نقل الأخبار والمواقف عن أفواه حاملها الحقيقيين في أكثر من مناسبة. كما أنّه اعتمد على مصادر أخرى مكتوبة وأخرى عبارة عن مخطوطات جمعها في رحلته أو صادفها أو اطّلع عليها قبل سفره، وهو يشير في أكثر من مناسبة إلى الطريقة التي اعتمدها في سبيل نقل الأخبار ويقول في هذا الصّدد: "وأنّ اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن الله، ثم عليه اعتمادنا سيدي أحمد بن محمّد بن ناصر الدّرعي الجعفري، هذا وإنّي أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان، وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرهما ممّا يناسب المحل" (الورثيلاني، 1908، الصفحات 36-37). وجاءت رحلة "الشيخ الحسين الورثيلاني" "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" غنيّة بالتضمين، إذ تضمّ بين دفّتيها مجموعة من الإحالات إلى الرّحلات السالفة التي قام بها الرّحالة الجزائريين أو المغاربة أو حتى العرب والمسلمين إلى بقاع كثيرة عبر أنحاء المعمورة. وكأنّ رحلته تشبه لوحة فسيفسائية تضمّ ألوان كثيرة داخل لوحة واحدة. ومن تلك الرّحلات نذكر على سبيل المثال: الرّحلة العياشية تحت عنوان: "ماء الموائد" لأبي العباس عبد الله بن محمّد بن أبي بكر العياشي، وتُعرف بالرحلة الكبرى، ولا تزال محفوظة بمكتبة زاوية سيدي حمزة بالريش بالجنوب الشرقي المغربي، وتضمّ موسوعة ثقافية ودائرة واسعة لمختلف المعارف الإسلامية، وتشمل على الرسائل والأسانيد والطرق الصّوفية وعلوم المسالك والممالك، كما تتضمّن جوانب كثيرة للحياة الفكرية والاجتماعية والثقافية والتاريخية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة بالمغرب الكبير والمشرق وأضحت مصدرا واسعا لكثير من النّصوص الأدبية منها والشعرية. ونجد أيضا رحلة الناصرية للعياش أحمد بن محمّد بن الحسين ابن الإمام الشهير أبي عبد الله محمّد بن ناصر بن

عمر الدّرعي ثم الأغلاني، وتمتاز رحلته بكثرة المعلومات المستمدّة من المعاينة الشخصية والملاحظة المباشرة في قراءة الأحوال الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية للبلدان التي زارها أثناء رحلته الممتدّة من بلاد المغرب صوب المشرق (بكاري، 2017، الصفحات 53-54). ونكتفي بسرد هاتين الرّحلتين كنموذج للتضمين وجدير بالذّكر أنّ "الشيخ الورثيلاني" استعان بنصوص ومسالك هذه الرّحلات لتنظيم وكتابة رحلته الشهيرة "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" في نقل الأخبار وسردها وتحديد المواقع الجغرافية إضافة إلى معرفة عادات وتقاليد أهالي كلّ منطقة زارها.

2.3 رحلة "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" والسّرد العجائبي:

لقد كثرت التعريفات التي تتعلّق بمفهوم مصطلح العجائبي، وحالت إلى صعوبة تحديد تعريف جامع مانع، كون المصطلح متعدّد ومفتوح على تغيّرات كثيرة وتعانقه اضطرابات كونه مرادف للغريب والعجيب والرائع والمدهش في كلّ الأجناس الأدبية. ويشمل العجيب على كلّ الأشياء الموجودة في العالم، فلو لم يعتد الإنسان على رؤيتها لبدت له عجيبة وخارقة ومحيّرة. وتعدّدت المصطلحات التي تدخل ضمن العجائبية مثل: الفونتاستيك (le fantastique) عند الغرب، وأيضا الغريب والعجيب والغرابة والوهم أو الأدب الوهمي، وربّما يكون مصدر هذه الغرابة والانشطار على الاندهاش والقلق من طبيعة النّص العجائبي المفارق للواقع من حيث سيرورة الأحداث وتنوّع الشخصيات، وهذا هو سرّ التأثير الذي يمارسه العجائبي على المتلقي حين يخرق عنده المألوف والمعروف والمنسجم، فتصبح الأشياء مغايرة عمّا كان متداولا في مخيّلته وتحطّم بالضّرورة الرؤية الفاصلة بين الواقع وغير الواقع وبين المرئي وغير المرئي ويصبح النّص مشبّعا بالفونتاستيك. (تزفيتان، 2002، الصفحات 4-5)

ولقد وُرد مصطلح العجيب في المعاجم العربية مثلما هو الحال في معجم "لسان العرب" "لابن منظور": "العجب إنكار ما يردُ عليك لقلّة اعتياده والنظر إلى شيء غير مألوف ولا مُعتاد" (منظور، 1990، صفحة 259) والمعنى المراد ها هنا هو الدّهشة والحيرة من الشيء الذي يفوق طاقة البشر. كما أورده التراث النقدي العربي لكن دون الانتباه إليه كمصطلح نقدي مثلما تكلّم "الجاحظ" قائلا: "والشّعر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النّقل، ومتى حوّل تقطّع نظمُه وبَطُل درنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجّب" (الحيوان، 1991، صفحة 75). ورغم إشارته لمصطلح العجيب في هذا القول إلا أنّ الجاحظ لم يبيّن مصدره. ومن جهة أخرى وُرد مصطلح العجيب في القرآن الكريم وفي مواضع مختلفة، نحو قوله تعالى: "يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وأَنَا عَجوزٌ وهَذا بَعلِي شَيخاً إنّ هذَا لَشَيءٌ عجِيبٌ"، الآية 72 من سورة هود. وُردت الآية في سارة زوج إبراهيم عليه السلام حينما جاءته الملائكة مبشرة بحبل زوجته، وهما في سنّ متقدّمة جدا.

ولا تكاد رحلة من الرّحلات تخلو من العجيب، ذلك لأنّه وافد في الوصف المقترن بالدّهشة والاستغراب، ممّا يجرّ القارئ إلى التشويق قصد المطالعة وبغية معرفة أحداث سير الرحلة، ولم يستثنِ "الورثيلاني" رحلته من العجيب وهو الذي صرّح قائلا: "أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبيّنا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية" (الورثيلاني، 1908، صفحة 31). ويذكر الرّحالة هنا الدّور الكبير الذي تقدّمه مثل هذه الوثائق السّفرية في التعريف ببقاع العالم وأصقاعه وأيضا من السّرد الطّويل لنصوص تتضمّن أحداثا عجيبة ومشاهد غريبة جمعها صاحبها من كلّ حدب وصوب، بالإضافة إلى أسلوب الكاتب الرّشيق والشيّق والملاحظة الدّقيقة والمعرفة

بسير الرّجال ومن هذه الزّوايا يمكن أن نعتبر الرّحلة مصدرا هاما لعدد من التراجم الجزائرية من العلماء والأدباء.

وتعدّ رحلة "الشيخ الحسين الورثيلاني" "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" أدبا من أدبيات التواصل وتمثّل أشبه ما يكون مقدمة لما أصبح يُعرف بالريبورتاج الصحفي (un reportage) بعض الشيء أي نوع من التقرير الممزوج بالنّص التاريخي والأنتروبولوجي والرّوائي وأيضا المذكراتي ... (سعاد، 2019، صفحة 216) ومن أشكال العجائبي الواردة في الرّحلة ذكر الرّحالة لأماكن تسرّ الناظرين إذ كتب يقول: "وبعدُ، فإنّي لمّا تعلّق قلبي بتلك الرّسوم والآثار، والرّباع والقفار والدّيار، والمواطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى، والمزارع والأمصار، والعلماء الفضلاء والنجباء والأدباء من كلّ مكان من الفقهاء والمحدّثين والمفسّرين الأخيار والأشياخ العارفين والإخوان المحيّين المحبوبين من المجاذيب المقرّبين والأبرار من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصّحو والمحو، إذ ليس لهم مع غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ويستحسنها الشادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبيّنا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من تصوّف ممّا فتح به عليّ أو منقولا من الكتب المعتبرة". (الورثيلاني، 1908، صفحة 31) والواضح أنّ الرّحالة منبهر لما رآه من مشاهدات تدلّ على ركن العجيب وآثار هذه البلاد العريقة، فالإحكام في وصف هذا الرّحالة جليّ والإبداع في النّحت بين الأسطر واضح وأسلوبه القويّ المتراوح بين قوّة الخيال والتصور، ويتجلّى العجيب ها هنا فيما شاهده من مناظر تسرّ الناظرين وبقي في الكثير من المناسبات مندهش لجمال الطّبيعة ومن خلق الله عزّ ذكره وجلّ.

وممّا لا ريب فيه أنّ العجائبي –وكما أشرنا إليه سالفا- من نسج الخيال الذي يتحرّر فيه الحدث من الواقع ليمتزج بغير ما هو واقع وغير طبيعي، فالغريب

والعجيب لا يبتعدان أبدا عن كونهما دلالتان تقتربان من الإبهام والحيرة، ومن المظاهر العجائبية التي تجلّت في رحلة الورثيلاني ذكره لحكايات صوفية عجيبة في أحداثها وأطوارها، نحو إشارته في أكثر من مرّة إلى الرؤيا والمنام التي كان يراها هو وسائر شيوخه ومنها ما ذكره عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم إذ كتب يقول: "وسيدي المحفوظ كان يرى النبي (ص) ويرى الله تعالى أيضا حسبما تراه في مرائيه" (الورثيلاني، 1908، الصفحات 31-32). فالفكر الصّوفي يقرّ بأنّ العبد لمّا يصل درجات من العلو والشأن الرباني يمكن له أن يرى نور الله عزّ وجلّ، ولقد أخذ الخطاب الصّوفي يحتلّ موقعه داخل المنظومة المعرفية بشكل قويّ وفاعل. ولا شكّ أنّ ذلك يعود إلى ثراء هذا الخطاب، وقدرته على تخطي الحدود المكانية والفواصل الزّمنية، والتموّقع في الفضاءات الثقافية المناسبة، والتعبير عن الحالات الفكرية والوجدانيّة والجمالية والفلسفية للإنسان الجزائري. بل إنّ التصوّف يكاد أن يتحدّى النّصّوص الكبرى في الثّقافات البشرية، ونعني بذلك النّصّوص الأدبية والفلسفية والدّينية، ويحاول أن يقوم بديلا عنها.

وفي موضع آخر يشيد "الشيخ الحسين الورثيلاني" بهمّة الأولياء الصالحين وبلوغهم مكانة مرموقة، إذ سجّل في رحلته ما يلي: "أخبرنا شيخنا أبو المهدي عيسى الثعالبي عن بعض مشايخه أنّ سيدي عبد الوهاب الشعراني عزم مرّة على التخلّف عن مولد سيدي أحمد البدوي وأن لا يذهب لما يقع هنالك من منكر فلمّا عزم على ذلك وقرب الوقت رأى في المنام سيدي عبد العالي خديم الشيخ سيدي أحمد البدوي وخليفته من بعده، فقال له مبسطا يا عبد الوهاب لا تنقطع عن زيارتنا ونحن نطعمك ملوخية، فلمّا استيقظ عزم على المشي فذهب فكان من الأمر الغريب الدّال على صدق الرؤيا ليلة وصوله لمكان الشيخ اتفق أنّه لم يطبخ أحد تلك اللّيلة في الزاوية كلّها ولا في القرى التي حولها إلا الملوخية فكانت طعامه وطعام أهل تلك الناحية في تلك اللّيلة" (الورثيلاني، 1908، صفحة 42)، وإنّ

أحداثا مثل هذه ترتبط بالنزعة الصّوفية المنتشرة بكثرة ببلاد المغرب والمشرق، فالحبّ الإلهي مقام رفيع وحصن منيع لا يبلغه العبد إلاّ بعد نصب وجهاد وسعي ومثابرة وحرص على إرضاء المحبوب. ويرى الباحث الجزائري "مولود معمري" أنّ الخطاب الصّوفي يخاطب بالدّرجة الأولى النخبة في المجتمع، ومبدعوه يملكون الخطوة في موهبة النّظم والقول، ويتقنون صياغة الأفكار والرؤى بكيفية تفضي الجمال على القصائد الدّينية شكلا ومحتوى.(Mammeri, 1990, p. 23) يركّز المتصوّفة جميعهم في سلوك الطريق إلى الله عزّ وجلّ، على الحب بكلّ أنواعه وأشكاله، حب بني الإنسان الذي خلقه المولى عزّ ذكره ووهبه الحياة ليعيش سعيدا مع أهله وجيرانه، فمن أحبّ الخالق، أحب مخلوقاته حبّا بصدق وحرارة تستهلك صاحبها، خيرهم وشريرهم، عليه أن يحبهم، ويرى ما يقومون به من سلوك هو من الله .

4. خاتمة:

وصفوة القول إنّ رحلة الشيخ الورثيلاني "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" تحمل في قالبها محطّات تاريخية بارزة في التاريخ الفكري والثقافي الجزائري، إذ تعرّضت لمواقف وجوانب شتى من الحياة، فكانت منبعا ثريّا لمختلف العلوم وهي بمجموعها سجلّ حقيقيٌّ لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية سواء تعلّق الأمر بالمغرب أو المشرق، كما تتضمّن سردا عجائبيا معتبرا لاسيما في وصف المظاهر الطّبيعية التي صادفت الرّحالة في طريقه وأيضا مظاهر الاعتقاد بالأولياء الصّالحين وكراماتهم وصنعهم للخوارق، كما أنّها وثيقة مهمّة في تزويد أهل العلم بعلوم شتى تمّ رصدها من كل حدب وصوب.

5. قائمة المراجع:

Mammeri, Mouloud. (1990). *Cheikh Mohand à dit.* Alger: Imprimerie : Réda Houhou.

Pierre, Versins. (1984). *Encyclopédie de l'utopie des voyages extraordinaires et de la science-fiction.* Lausane: L'âge d'homme.

الجاحظ .(1991) .*الحيوان* .بيروت :دار الجيل.

الموافي عبد الرّزاق (1995) . *الرّحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع* . القاهرة :مكتبة الوفاء للطّباعة والنّشر والتوزيع.

الورثيلاني, الحسين .(1908) .*نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار* . الجزائر :بيير فونتانا الشرقية.

بكاري عبد القادر .(2017) .حسين الورثيلاني والكتابة التاريخية من خلال رحلته الموسومة بنُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار .*مجلة الناصرية للدّراسات الاجتماعية والتاريخية* .62-41

تزفيتان ,تودوروف .(2002) .*مدخل إلى الأدب العجائبي* .الرباط :دار الكلام.

ترشاق ،سعاد .(2019) العجائبي في الرّحلة الحجازية الجزائرية –رحلة الورثيلاني "نُزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار "أنموذجا .-*مجلة حقائق للدّراسات النّفسية والاجتماعية* 225-214

عمر بن قينة. (1995). ، *في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلامه*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

مرتاض عبد المالك .(2004) .*ألف ياء تحليل مركب لقصيدة ابن بلادي لمحمّد العيد آل خليفة*. وهران :دار الغرب للنّشر والتوزيع.

ابن منظور .(1990) . *لسان العرب* .بيروت :دار صادر.

وهبة مجدي .(2008) .*معجم مصطلحات الأدب (إنجليزي، فرنسي ، عربي)* . بيروت :مكتبة لبنان.